اقوى من الزمن

تأليف : يوسف السباعي

ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ ٢٠٨ ص

***

في طلائع الانجازات الثورية المذهلة التي حققتها الادارة الشعبية في بلادنا في العهد الجمهوري ، بناء السد العالي . والسد العالي بين مشاريعنا الضخمة يتميز بانه يبلور بصورة فريده ، الطاقات الكامنة في شعبنا بأدق تفصيل . عندما يشكك في قدرتها ويستهان بقوتها ، فتنقض ثائرة لتتجمع ثم تنطلق صانعة الاعاجيب .. كاتبة تاريخها من جديد .. ومن انفعال الادباء الشديد وايمانهم العميق بهذا العمل ، ظهرت مسرحية يوسف السباعي الجديدة (اقوى من الزمن) .

ونبدأ المسرحية في منطقة أسوان بتوقف العربة التي تحمل المهندس عمر ومساعده مصطفى ، العاملين في السد العالي ، لقطع سير المروحة وسخونة السيارة وحاجتها الى مياه لتبريدها . ويأخذ السائق صبحي صفيحة فارغة ليملأها ماء ، وبينما المهندس وصاحبه في انتظار السائق الذي تأخرت عودته ، اذ يظهر الاخير معلنا انه اكتشف في داخل احد المعابد الفرعونية ،جماعة من الناس غريبة الازياء والسحن. يبدو انهم من الفنانين يتخذون من المكان مسرحا لاحداث رواية سينمائية جديدة يمثلونها . ولما كان المكان يخلو تماما من وجود أي اثر يدل على ذلك ، فقد انكر الرجلان ما سمعاه ، ولكنهما يتبعاه داخل المعبد ، وقبل ان يوغلا فيه كثيرا ، يفاجآن بحسناء تطلع عليهم . ونكاد الدهشة تلف اعصابهم جميعا عندما تتحدث اليهم فيدركون انهم بازاء انثى غير عادية ، لم تسمع بالسد العالي او السيد المسيح او اختراع السيارة ، الى آخر الاشياء الحديثة والقديمة ، ماعدا الموغلة في القدم ، مثل او بالذات عصور الفراعنة . بل وتذهب الفتاة الى ابعد من ذلك ، فتؤكد ان اباها هو فرعون وان مصر تعيش اليوم ازهر ايامها الفرعونية ! وبهذا اللقاء يفتح المؤلف نافذة على احتكاك الحديث بما قبل الميلاد لتتولد الشرارة التي تبلور عظمة هذا الحدث الهائل .. بناء السد العالي !

ويدعم يوسف السباعي مفارقته هذه . بلبس يقوم بين الجانبين ، ينجم من اشتراكهما في الحديث عن ذات الالفاظ والاشياء رغم اختلافها تماما عند كل جانب ! فالثورة تعني عند مريت ـ الاميرة الفرعونية ـ تمرد بعض طبقات الشعب مطالبة بحق التمتع بالجنة السماوية وعدم قصرها على الاسرة الملكية . بينما هي عند عمر وصاحبه تعني ثورة ٢٣ يوليو !! وهكذا تتعقد الامور بين الجانبين ، فتظنهم الفتاة غرباء وآجانب لايعرفون عن بلدها شيئا ، بينما يحسبون هم انهم عثروا على فتاة مخبولة ! ولكن سوء الظن ينحسر باقبال عمر جادا على تفهم الحقيقة التي يشي بها ماتنطق به الفتاة من صدق ، يؤكد نضارة الحياة حولها وجدتها بصورة حديثة لاقديمة . وهكذا تبدأ المسرحية في الاقتراب من قمة احداثها !

وتتصل الاسباب بين الطرفين ويقع عمر ومريت في الحب ، وتعرض صلابة معدن الشعب الممثلة في السد العالي على الفتاة الفرعونيه . ولكن صورة الحضارة الحديثة تفسد الامر على الفتاة ، فالاختلاف الحضاري الهائل بين الامس القديم والحاضر يورث الخبل . وهكذا تفر مريت الى عالمها مرة أخرى ، ولاتعود اليه وحدها ، بل يصحبه حبيبها عمر وصديقيه مصطفى وصبحي ! ويتلاعب السباعي بالاحداث تلاعبا بارعا رائعا مبتكرا ، فاسرة الفتاة الملكية الفرعونية تعيش أحداثا ضخاما ، فهم يستشرفون نبوءة تتحقق عن غزو الشمال لبلادهم وأغراقهم لاراضيهم ، ومريت تجد في حديث عمر عن السد مصداقا لهذه النبوءة ! فاصحاب السد غزاة لهذه الارض الجنوبية وهم يعرفون بأن السد سيغرق الارض ! وتعتمد مريت على هذا التفسير ـ حتى بعد وقوفها على خطئه ـ في اقناع اهلها بأن اصحاب السد هم الذين عنتهم النبوءة ، وبهذا الاسلوب استطاعت ان تقترن بعمر كأمير أهل الشمال ! ولكن حور شقيق مريت والمرشح السابق للزواج بها ، يتهم عمر وصاحبه بالتآمر ، فيسجنون ويحاكمون . ولكن مريت تنجح في انقاذهم وتهريبهم. وهكذا يخرجون من العالم الفرعوني كله !

ويقام حفل تحويل مجرى النيل بامام المرحلة الاولى من السد العالي، ولازال عمر واقعا تحت تأثير الاحداث الماضية ، آملا أن تتحقق المعجزة ويلتقي بمريت مرة أخرى ! وفي زيارة للمعبد الذي وقعت فيه هذه الاحداث ـ بعد نقله من مكانه الى قمة الجبل .يفاجأ عمر بمريم عز الدين موظفة الاثار التي اشتركت في نقل المعبد .. صورة طبق الاصل من مريت! فاذا به يندفع نحوها في وله غير مفرق بينها وبين حبيبته القديمة ، ورغم انها لاتفهم سر تصرفاته ، الا انها تقبل عرضه السريع بالزواج منها ! ولعل السباعي أراد بترحيبها هذا ان يؤكد أن روح جدتها مريت قد حلت في جسدها !

رغم ان يوسف السباعي لم يخرج في (اقوى من الزمن) عن تناول عمل له جوانبه السياسية ، شأنه في انتاجه الاخير عامة ، الا انه من الواضح ان مؤلفنا اكثر اهتماما وتعاطفا بموضوع مسرحيته مما تضمنه آخر رواياته (ليل له آخر) مثلا . فهو هنا أقل مباشرة وتصنعا، واكثر موضوعية وفنية مما ابعده بحق عما كان يؤخذ عليه من اقتراب رواياته السياسية الاخيرة من اسلوب المؤرخ لا القاص الفنان . ولعل من الاشياء التي اشتركت في تكوين هذا المستوى ، ان كاتبنا لم يتسرع ويقطف الثمرة وهي لما تزل فجة ، بل انتظر حتى نضجت الفكرة واختمرت جيدا ثم امسك بالقلم . وهكذا انبثقت لمساته المبتكرة ـ التي افتقدها القارىء وقتاغير قصير ـ والتي اضفت مزيدا من الحيوية والرشاقة على عمله . كاكتشافه لمثل فكرة المسرحية ، وتجسيد تداخل الحاضر في الماضي بالاعتماد على اسطورة فرعونية قديمة فسر بها الكاتب تفسيرا عصريا مشروع السد العالي ! وهذا التداخل بين أليوم والامس البعيد ، الذي استخدمه السباعي في زحزحة خلفية الصورة الضخمة التي

تتناول حياة الفراعين وتربط تاريخنا الحديث بقديمه الى مقدمتها ، يستأهل بلا شك وقفة قصيرة .

فعندما حاول يوسف السباعي ان يقيم هذا البرزخ بين عالم اليوم والامس ، لم يسلك الطريق التقليدي في الاستعانة بالحلم ، او بخاتم سليمان مثلا ، أو بغيره من المعجزات الصارخة ، بل جاء بشيء كالمعجزة حقا ولكن العقل لا يرفضه جملة وتفصيلا ، لانه يتصل بالروح ، التي هي من أمر ربي ! وأستعمال هذا العنصر امر لا غرابة فيه بالنسبة ليوسف السباعي او لقارئه على السواء ! فالسباعي هو صاحب المجموعة القصصية المعروفة (من العالم المجهول) التي تجيء في مقدمتها هذه الكلمات : « مع كل هذا التخبط في التفكير والجهل بالحقيقة ، يتملكني احساس بان هناك أشياء خفية .. أشياء لا شك في وجودها .. ولكن اذهاننا البشرية اعجز من ان تدرك كنهها ، واعيى من ان تحيط بحقيقة كيانها . ضلة للانسان .. ماجهل في الحياة بشيء جهله بنفسه .. فهو مازال يتخبط في ادراك كنهه .. لا يكاد يعلم عن نفسه الا أنه شعاع يخبو ، وبارقة تضحك .. » !

ومظهر هذا العبر بين عالمي الزمنين ، هو اكتشاف واحد من المعابد الفرعونية الكثيرة التي تتناثر في ارض أسد العالي ، وبعبور الشخوص ردهته الخارجية الى الداخلية ، يعبرون السطح الى الاعماق ، والحاضر الى الماضي ، فيلتقون بدنيا الفراعنة لقاء احياء بأحياء ! نقف فيه على دهشة الاخيرين التي تعكس تقييما بارعا لبناء السد العالي والحضارة الحديثة : كما يمكن ان تفسر هذه الفكرة ايضا ، بانها تصوير لبعض المجتمعات المغلقة التي لا زالت تعيش في بلدنا ، بعقليتها القديمة وامجادها السالفة ، رغم كل الانتصارات الباهرة التي حققها الانسان لكرامته وحريته وعبقريته .

ويستطيع القارىء ان يجد في(اقوى من الزمن)الكثير من المقارنات، التي لايخلو منها فصل وخاصة الخامس ، بيننا وبين اجدادنا الفراعنة . ومن الواضح ان يوسف السباعي يسخر من الكثير من قيم قدماء المصريين، فهو يرفض ان يتفق معهم في اشياء غير قليلة . وهو لا يستعير مقاييس العصر الحديث في الحكم عليها فحسب ، بل ويصر على الا ينظر اليها من وجهة نظر عصرهم ايضا ! وكأنه لا يجدهم اهلا لما يسبغه عليهم التاريخ والناس ! فيرى مثلا ان المصريين القدماء كانوا يعملون تحت ضغط القوة والسياط تلهب ظهورهم ـ من الطريف انه انطق «مريت» الفرعونية بذلك ! ـ اما نحن فنعمل بارادة التحدي .. تحدي الزمن الذي تركنا نقفو والعالم يطير ، وتحدى اعدائنا المستخفين بنا .. الهازئين منا .. » (ص ٥١) . وينتهي يوسف السباعي في هذا المجال الى قول الفرعونية مريت : يبدو لنا .. انه قد آن الاوان لنا .. نحن اجدادكم الفراعنة ـ كما تصرون على الزعم ـ بأن نفاخر بأحفادنا .. انكم حقا شيء يستحق الفخر !

ولما كان فنانا قد اتخذ موقفه من مقاييس قدماء المصريين من خلال حدود ايمانه الشديد بمشروع السدالعالي . الذي بنى ـ اي المشروع ـ على رفض مبدأ تقديس الفراعنة ، وبالتالي رفض عدم المساس بآثارنا ، الى درجة الجور على حق الاحياء في الانتفاع بتخزين مياه السد . فقد حاول كاتبنا أن يجد في بعض ملامح الصورة التي رسمها للفراعنة ، ما يشد ازره هو ويؤكد صحة الموقف الذي اتخذه ! كما فعل وهو يصور مريت ، اذ نتكشف بعض جوانبها عن شخصية ـ لانقول ذات مزاج ومفاهيم عصرية . بل متطورة وسابقة زمنها ـ تشك فيما يسود الحياة الفرعونية من عظيم اهتمام بالحياة الاخرى على حساب الحياة الدنيا « ثورة الشعب من اجل حق الحياة .. اولى من ثورته من اجل حق الاخرة .. والسد للحياة .. اولى من المقابر للجثث .. اشياء كثيرة في حياتنا كانت تقلقني . » (ص ٣٩) . وقد اسرف المؤلف في اتخاذ هذا الموقف الذي يعرض لتحرر مفاهيم مريت بالنسبة الى قومها وعصرها، الى درجة مبالغ فيها ، جعل الصورة تهتز والمرئيات تتداخل ، وخاصة وان السباعي تناول ذلك باسلوب تقريري سطحي . ولعل من بواعث ذلك ايضا ان آراء الفتاة الفرعونية في هذه الشئون ، تجيء في معظم الاحيان كتعقب على قول متحدث آخر ، لاتنبع من أفكار خاصة تشغلها أو تعكس صراعا يمور في اعماقها .

عندما تناول السباعي اوضاعنا الداخلية في (رد قلبي) او (نادية) ، والعربية المنصلة بفلسطين في (طريق العودة) ، والعربية المتصلة باتحادنا مع سوريا في (جفت الدموع) أو (ليل له آخر) . كان من الواضح انه يكتب عن دراية كبيرة لما يعرض له ويصوره من هذه الاحوال والاوضاع . ولكن هذه الميزة أو الظاهرة نفتقدها في (اقوى من الزمن) وهو يتحدث عن الفراعنة ، الى درجة ان يجد نفسه في حاجة الى الاشارة في الهامش الى أن صيغة عقد الزواج التي استخدمت في قران عمر بمريت « مأخوذة من نص عقد زواج يرجع تاريخه الى عام ٢٣١ ق. م. .. أبرم بين امحوت وناحتر ـ ويعقب السباعي لزيادة التأكيد طبعا ـ وهو محفوظ في المتحف المصري بالقاهرة » ! (ص ١٢٢) . واذا ابان هذا الهامش بصورة مباشرة عن ضعف كاتبنا في هذا المجال ، ففي مواضع اخرى ينعكس ذلك بصورة غير مباشرة كما في غيره مريت من صفية أخت عمر وشكها في وجود علاقة غرامية جنسية بينهما ـ حسب معتقدات قدماء المصريين ـ فلقد صور السباعي هذا المعتقد الفرعوني المعروف للجميع بلون باهت لا يقنع بأصالته . وليس ادل على ذلك من نصنع مصطفى ، وهو المهنم بالفراعنة الذي يعرف الكثير عنهم ، ودهشته لهذا الامر المهول . وذلك ليعرض لنا المؤلف من خلال هذا التصنع ، هذا الجانب من العقيدة الفرعونية الذي لا يلتفت الى وجوده احو كما يظن !

ومن امثال ذلك ايضا اشارة السباعي اكثر من مرة الى الصورة التقليدية البالية المكرورة الى درجة السأم والقرف ـ وكأنها كل شيء لو صحت ـ لاجبار الشعب على حمل الاحجار لبناء الاهرامات والمعابد . (ص ١٦١) .

وهكذا لم يحالف التوفيق فناننا في معظم الاحايين في تجسيد معالم الحياة الفرعونية، فلم يحس المتلقي بان هناك انتقالا حقيقيا الى العصر المصري القديم . وقريب من ذلك ما أستشعره القارىء وخاصة في الاجزاء الاولى من المسرحية ـ والسباعي يؤكد مصرية الفتاة الفرعونية مائة في المائة ، وانها ليست غريبة او مختلفة عنا ، فشخصيتنا لم تتغير منذ آلاف السنين ـ من تقطع الصلات بين مصرية الامس واليوم . ووجود فجوة ضخمة وحلقة مفقودة بين المواطنين .. القديم والحديث . لا كما يريد أن يوهمنا الكاتب بعكس ذلك ـ من بواعث ذلك اعتماد فناننا اعتمادا كليا على الحب ، ظانا ان استهواء كل من مريت وعمر للاخر دليل على انتماء كل منهما لجنسية واحدة . وكأن الغرام سمة خاصة لاعاطفة انسانية يملكها البشر جميعا ولا تقتصر على جنس او بلد .. ـ ولعل توفيقه في نقل هذا الاحساس الينا واعطائنا هذا المعنى بصورة غير مباشرة ، جعله يجهر به جهرا كما في (ص ٨٤) ، فنحن نحن لم نتبدل « باطننا .. تركيبنا الآدمي » مشاعرنا .. الامنا.. متاعبنا.. حاجاتنا .. اذواقنا .. مطامعنا .. امالنا .. رغباتنا .. » .

لا اظن ان قصة الحب كانت الزم في عمل ليوسف السباعي مثلما كانت في (اقوى من الزمن) . فالموضوع المتناول ـ السد العالي ـ الذي يمكن ان يبدو من وجهة نظر فنية « جافا » او جادا اكثر من اللازم ! يكون في اشد الحاجة الى لمسات انسانية رحبة ، لايبلورها مثل الحب ، حتى لا تغطي عليه الخطوط المجردة . وقد وفق الكاتب في استخدامه ليجعل اتصال عالمي مريت وعمر أكثر معقولية ! وقد عمل الحب على دفع عجلة الاحداث ، ولولاه لما ارتبط عمر بمريت ، ولا يمكن للمسرحية ان تتوقف وتنتهي وهي لما تكد تبدأ ، عندما غارت الفتاة الفرعونية من صفية اخت عمر ، وظنت كما تعهد في قومها ان الاخ يمكن ان يقترن بأخته . فصممت على ان تنهى علاقتها بالشاب المهندس والاتقابله بعد ذلك . ولو لا أن تكشفت الحقيقة لما حدث لقاءات اخرى وتتابعت فصول (اقوى من الزمن) ! ولعل ما يعنيه يوسف السباعي في مسرحيته باقوى من الزمن له دلالته الواضحة ، فهو لايرمز به الى الانسان او السد العالي او الحضارة ، وانما يعني به الحب وحده .

القارىء ان السباعي اراد ان يكون السد في (اقوى من الزمن) اكثر من مسرح لاحداثها او واجهتها الخلفية .. بل شخصية من اهم شخصياتها ان لم تكن اهمها على الاطلاق ، تحرك الحوادث وتؤثر في الشخوص وتلون احاسيس ومشاعر . ولم يكتف المؤلف بذلك ، فجعله ايضا شخصية ذات تاريخ ـ وخاصة في المرحلة الاخيرة ـ يعرض لانجازاته البنائية حتى افتتاحه رسميا . وهكذا امكن مكاتبنا الا يجعل السد يغيب لحظة واحدة عن المتلقى ، لا يكف عن تناوله بأسلوب مباشر وغ يرمباشر ايضا ! فهو اذا اختار اسوان مكانا وذهب بنا الى موقع السد لنشاهد بناءه من قريب لا من بعيد شأن السياح ، وانتقى شخصوصه من بين العاملين فيه مثل عمر المهندس ومصطفى مساعده وصبحي السائق ، فهو كذلك يجعل الصراع الذي نقوم عليه المسرحية يستند في جوهره الى ضرورة هذا المشروع الضخم وبساطة التضحية بنقل آثارنا القديمة الى موضع آخر .

ورغم كل ما يمتاز به (اقوى من الزمن) فهناك ملمح قوي آخر مميز لا يمكن تجاهله ، لانه يعرض لنا جانبا من اغوار يوسف السباعي التي لا تظهر على السفح كثيرا ، وهي اشجان الفنان وتأملاته في الحياة والبشر والكون . مثل هذه الصرخة التي يطلقها عمر (ص ١٢٧ ـ ١٣٢) ، هل استطاع الانسان في تاريخة الطويل ان ينجح في ان يوفر لنفسه السعادة والطمأنينة والامن ؟ والجواب بالنفي « ان شيئا في تركيبنا يأبى علينا الراحة » . والسباعي لا يريد بهذا القول ان ينفي عن الانسان مسؤولينه فهو نفسه الذي يبتكر كل وسائل التدمير للقضاء على ذاته في النهاية . ويذهب مؤلفنا الى أكثر من ذلك ، لقد سلب الانسان بهذه المخترعات المدمرة اشياء هامة لا يمكن تعويضها .. نعمة الراحة .. نعمة الاكتفاء .. نعمة الامان من الخوف .. الخوف من انفسنا .. وممن حولنا ، ومما حولنا » .

ومن القضايا التي ناقشها السباعي في مسرحيته ايضا ، قضية الزمن . فالمؤلف قد اعتمد على هذا العنصر اعتمادا تاما في التقاء العصر الحديث بالقديم ، ومن خلال تداخلهما بعرض وجهات نظر كل منهما . ثم حاول ان يتناوله في سرعة بشكل اقرب الى التجريد في بعض المواضع ، كما فعل (ص ٧٨ ـ ٧٩) ومريت وعمر يتشاكيان الهوى ويبحثان عن مخرج لاختلاف زمنيهما . ولا بد لواحد منهما ان يتنازل عن وافعه لصاحبه ، وتختار مريت ان تترك واقعها وتعبر الهوة الزمنية لتلتقي بمن تحب . وكأن السباعي يرمز بذلك الى غلبة الحاضر على الماضي القديم ، وتغادر الفرعونية عالمها تاركة اسرتها سعيدة بالحب الذي نجده عند صاحبها . ولكن ذلك لا يدوم الاساعات قلائل ، وتصدم مريت صدمات تكاد تذهب باللب لما نجده من صور الاختلاف بين دنياها القديمة ودنيا عمر . فلقد مرت على العالم الاف السنين تركت بصماتها على الاشياء الاف المرات . ونزمع الهرب والعودة الى دنيا الفراعنة رغم حبها الكبير « غير معقول ان أستمر هكذا .. أنهم ينظرون الي كأن بي خبلا .. وهم على حق .. اني وراءهم بالاف السنين . كل مالديهم وما اعتادوه .. غريب على .. انا غريبة بينهم .. اني لست حتى مجرد طفلة .. وفي كل يوم .. بل في كل ساعة .. سأواجه بجديد لا اعرفه. علي ان اواجه في كل خطوة شيئا مذهلا .. وعلي الا اذهل .. وان أبدو كأنني اعرفه .. والا انهمت بالجنون .. وحتى اعرف كل هذا يكون العمر قد ضاع .. ليس لي مكان هنا .. بين هذه العجائب .. الا ان اكون انا مجرد اعجوبة » (ص ١٠٢) .

واذا كان الفشل قد لحق بتجربة تكيف العصر القديم بمبادىء العصر الحديث ، فللزمن أن يعرض وجها آخر ، وهو معايشة الحاضر للماضي. فلقد عرضت مريت على عمر أن يتنفس في عالمها كما حاولت هي الاندماج في عالمه ، وقبل المهندس الدعوة ، حبا في الفتاة ورحمة بها من قسوة التجربة التي تعرضت لها .. ولكن السباعي هذه المرة لا يضع للتجربة نهاية ، وان كان قد رسم ابعادها وحدد خطوطها . ولا أظن انه فعل ذلك لانه مقتنع بها ، وانما لانه ـ بمقارنتها بالمحاولة السابقة ـ اكثر ميلا اليها . ربما لان الانسان يعرف الماضي ويجهل المستقبل ، فهو اكثر اطمئنانا الى القديم الذي عاشه او ورثه من الجديد المتوقع المفاجيء . لذلك بتر المؤلف التجربة الثانية ، باتهام حور لعمر وزميليه بالخيانة ، والحكم عليهم وانقاذ مريت لهم ، بتهريبهم من السجن ..

ومن شخصيات المسرحية التي اهتم بها السباعي ، عمر ، وصبحي ، ولقد صور المؤلف عمر المهندس شديد الانفعال بالسد ، ينسيه حرصه على بناء المستقبل المحافظة على امجاد الماضي . فيرى في المحاولات التي تبذل في انقاذ اثار منطقة السد قبل ان تجهز عليها مياهه ، مالاضائعا وعملا غبيا وجهدا اخرق ، لم يكن من الواجب اضاعته في مثل هذا السبيل فان لم يكن بد من صنع شيء ما ، فكان يكفي « لافتة ببضع جنيهات ، وسهم يشير الى قعر النهر .. هنا يرقد المرحوم امختب في قبر صفة كذا وكذا .. اغرقه السد العالي الذي منح الحياة للملايين » !! (ص ١٦ ـ ١٧) . كما يصوره السباعي رزينا لا « يندلق » يحاسب على خطواته جيدا ، ولكنه ازاء فتنة مريت لا يستطيع ان يقاوم سحرها . فهو معها كما يقول احد اصحابه ، يكاد يحملها من فوق الارض .

ويصور المؤلف في شخصية صبحي . مزاج ابن البلد المصري . فهو صريح لا يخفي ما في نفسه ولا يكتم آراءه في الناس والاشياء . يجابه مريت عندما ظنها في البداية وهي ترتدي ثيابا رقيقة ، انها ممثلة او راقصة ، فيعلنها انه طول عمره لا يحب ثياب الرقص حتى ولو كانت حشمة ! (ص ٥٧) . ومقاييسه في الجمال تؤكد ذلك ايضا ، فهو يعجب بالوصيفة سميحة لان « لحمها طري وجسدها يملأ الحضن » ! ويفكر في الزواج منها رغم انه متزوج ! ويحمل صبحي معتقدات طبقته الدينية ومفهوم مكان العبادة عندها . فهو ما يكاد يعلم أن المعبد الفرعوني ليس الا بيتا من بيوت الله ، كما اخبره المهندس حتى تتجمع على الفور في ذهنه اول ملامح هذا البيت .. ميضة وخادم !

ومن الجوانب القوية في المسرحية ، تجسيد لاتجريد السد . فيلاحظ

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
اعطنا حبا	« «	٢٥٠
مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

واذا كانت الاعمال الاخيرة ليوسف السباعي قد خفتت فيها روح مرحة المعروفة ، التي كانت تطبع قصصه ورواياته حتى مقالاته السابقة بطابعها المميز . فان هذه الروح تعود ثانية في (اقوى من الزمن) الى الظهور بكل قوتها . حتى ليمكن أن تعد المسرحية كلها نتاج هذه الروح .. في افكارها .. وخيالاتها .. ولساتها ! ويعتمد المؤلف احيانا على الموقف الكاريكاتيري . كما في قضم مريت للميكرفون وهي تظنه شيئا يؤكل ! او يستخدم اللمسة النقدية ، كما في تخيله لما تصنعه مصلحة الضرائب لو تعاملت مع فرعون « بتقديراتها الجزافية سيصبح فرعون مدينا لنا باذن الله ، بعد كل هذا العمر الطويل من الفرعنة .. سيتحتم عليه ان يدفع بدل ان ياخذ ! » (ص ٩١) .

واذ يحاول السباعي ان يكون موضوعيا وان يعرض وجهات النظر المختلفة لما يتناول ـ مع ميل غير قليل الى الاستخفاف بالرأي المعارض وعرضه في اكثر الصور سذاجة وبلاهة ! ـ فقد كان من الطبيعي الا يتجاهل رأي فريق كان يرفض مشروع السد بحجة انه يغرق الارض الغنية بكنوز وتاريخ انساني لم يكتشف بعد . فمصطفى مساعد المهندس يقول عن ارض السد الثرية بالاثار انها شيء له قيمة لنا جميعا ، شيء نفاخر به (ص ١٤) . فيرد عمر ساخرا : « ولكن .. في البداية .. في اول خلقه .. هل تظنه انشيء من اجل ان نفاخر به .. هل تظن اجدادك الذين انشاوه .. قد كلفوا انفسهم كل هذا الجهد .. من اجل ان يتركوا لك شيئا تفاخر به .. انظنك كنت تشغل بالهم حيث لابد لهم ان يتركوا لك شيئا تفخر به ! » .

في غير فصل من فصول (اقوى من الزمن) يسيطر على القارىء احساس قوي بانه يقترب بشكل او بآخر من روح (حديث عيسى بن هشام) . فما هو مبعث هذا الاحساس . رغم الادراك الواعي للمتلقي ، باختلاف طبيعة العملين ؟ يخيل الي ان هذا الشعور قد نجم لا عن عرض وقع الحاضر على انسان الزمن القديم ببعثه حيا ، فهذا اسلوب قديم عرفته فنون عربية غير القصة قبلا . ولكن عن رغبة المؤلف في اعطاء الكثير من المعلومات ، او على الاصح تسجيل الكثير من الوان التغيير التي حدثت . وكان السباعي اراد ان تحمل مسرحيته كل ما تنبض به حياتنا اليوم في كافة المجلات من قضايا كثيرة تشغل اصحابها وتؤرقهم ، وهكذا عرضت اللقطات من السد العالي والديمقراطية والاشتراكية وراس المال المستغل الى المهندسين والعمال السوفيات العاملين في اسوان !

ولقد ملكت السباعي رغبته القوية في ان يلم بكل شيء عن السد العالي ، حتى انزلاقة في بعض الاحيان الى حديث تقريري جاف عن تصميمه وطريقة بنائه مثلا . كما في ص ٦٠ ـ ٦١ ، حتى استشعر القارىء ضرورة وجود رسوم ايضاحية يحدد عليها المؤلف ما يشير اليه !

المنصورة (ج. ع. م.) **علاء الدين وحيد**

النخلة والجيران

رواية بقلم غائب طعمه فرمان

منشورات المكتبة العصرية ، بيروت

***

لعل « النخلة والجيران » اول رواية عراقية جادة ، بعد محاولات محمود السيد الذي يعتبر بحق صاحب المحاولات الاولى في الرواية العراقية والقصة القصيرة كذلك . وقد سبقت رواية الاستاذ غائب طعمة فرمان هذه ، بعض الاعمال « الروائية » ولكنها لم تكن تملك صفة الرواية الحقة حيث لم تتوفر اكثر الاسباب الفنية التي تجعل من القصة رواية.

وقد عرف القراء الاستاذ غائب طعمه فرمان قصاصا منذ عام ١٩٥٥ عندما طلع علينا بمجموعته الاولى « حصيد الرحى » وكانت مجموعة قصصية طيبة كبداية ، وقد ضمت قصصا موفقة تماما مثل « صورة » . ونشر بعدها مجموعته الثانية « مولود اخر » . واخيرا عرفناه روائيا يتقدم بخطاه في حقل يكاد يكون قفرا في العراق .. فليس هناك ، قبل « النخلة والجيران » رواية عراقية جديرة بهذا الاسم .. وحتى القصة القصيرة عندنا ، اذا قورنت باختها المصرية ، لا تعتبر شيئا جديرا بالمقارنة ، اذا استثنينا قصص عبد الملك نوري وغائب والتكرلي وجبران ونزار عباس .. ولكنهم منذ ثلاث سنوات قد صمتوا . فهل جدبت قرائحهم ؟ وقد كنت اتتبع المجلات العربية بلهفة ولكن دونما جدوى ، ويبدو ان وراء صمتهم اسبابا لا نعرفها .

***

ليست هي بالنخلة العراقية التي يعرفها الكثير .. النخلة الفارعة المتهدلة السعف كصفائر امراة جنوبية حسناء ، مثقلة الضروع تتمايل على شط دجلة او الفرات . ولكنها قميئة منزوية في صحن دار خربة بالقرب من تنور خبازة محترفة . انها نخلة حقيقية وقد اكتسبت القبح والعقم ، اللذين لا يملكهما البشر وحدهم ، من الحياة التي نمت وسطها . وهل تكون نخلة رائعة وسط حي مترب موبوء بروائح القمامة والدهن المحروق والجدران المشبعة بالملح والرطوبة .. اية نخلة واية حياة قادرة على الازدهار في زقاق مصدور النسيم ؟ ليست حياة النخلة افضل من حياة سليمة الخبازة او حمادي الحوذي السكير ، طريح المرض والفاقة ، او العوانس الثلاث .. هذه العوسجات اليابسات ، ومرهون السايس واخرين . وليس مصير النخلة بمختلف عن مصير صاحبتها سليمة الخبازة وجيرانها . فمثلما امست النخلة مهجورة في دار قد باعوها لتضم الى مصنع .. ومثلما كانت النخلة مهددة بالقلع كان الاشخاص جميعا مهددين بالكارثة . ان سليمة الخبازة قد باعت نفسها ، مرغمة بقوة لا تدري مصدرها ، الى افاق محتال ضحك عليها وغدر بها في اول يوم من ايام (صداقتهما) التي احاطتها الاسرار والالغاز لدى الجيران .

تبدأ الرواية مع مغيب الشمس بنداء اسومة العرجاء وباصوات الجيران البسطاء المنسيين في زقاق بغدادي خلف شارع الرشيد الضاج بالحياة . ومن التحقيق الذي تقوم به الخبازة مع ابن زوجها حسين عن نقصان في الفلوس تتهمه به ، نتعرف على شخصية هذا الفتى المتسكع الذي يبدو وجها باهتا كانسان ، وليس كعمل روائي ، وندرك انه يعاني افلاسا مزمنا آخذا بخناقه حتى اللحظة التي باع فيها الدار .. وقد فات الاوان .

ومع هبوط الظلام تأخذ النخلة شكلا شبحيا وسط الدار . وليس من سمير سواها طوال الليل . فتتطلع سليمة الخبازة « الى نخلتها القميئة تبرك قرب الحائط وسط دائرة سوداء . نخلة مهجورة عاقر مثلها تعيش معها في هذا البيت الكبير خرساء صماء تتحمل كل المياه القذرة التي تلقى في حوضها ، ويمر الصيف والشتاء دون ان تحمل طلعا او تخضر لها سعفة . » في هذه الكلمات الفنية يكمن سر الرواية كلها . انها تجسيد رائع لحياة سليمة الخبازة نفسها ، وربما لحياة هذا الزقاق البغدادي برمته ، هذا المخبوء خلف شارع الرشيد ، بما يدب فيه من بائعات باقلاء مهدمات ، وعوانس فاتهن القطار وفراشين في دوائر الحكومة .. وحرمان وترقب شيء هائل مظلم واكيد .. مخيم على الحي كله بين عشية واخرى .. لعله الكارثة او الجريمة او الموت .

***

كثيرا ما اعتاد الكتاب الروائيون ان يصرفوا جل انتباههم واهتمامهم الى شخص واحد او شخصين يأخذان صفة البطولة في العمل الفني . ومن خلال تصرفاتهما او علاقاتهما نتعرف على الاشخاص الاخرين الذين لا يشكلون الا تكملة للشخصية الرئيسية . وثمة روايات اخر لا نستطيع ان نضع يدنا فيها على بطل واحد او اثنين . حيث يكاد اكثر الاشخاص يمثلون حيزا متشابها في البناء .. وقد تعتبر رواية « انا كارينينا »

---

١ ـ رواية عراقية للاستاذ غائب طعمة فرمان ـ من منشورات المكتبة العصرية ، بيروت .

نموذجا لهذا النوع من الرواية . وفي النخلة والجيران نتلمس تجسيدا لهذه الطريقة في البناء والتصوير ، خاصة في الاجزاء الاولى حتى الفصل السابع والعشرين حيث يبدأ الكاتب مهتما ومنصرفا الى شخصية حسين وحده ، والذي يتطور ، عبر الفصول الاخيرة ، تطورا عجيبا .. انه يغدو الشخصية الوحيدة تقريبا من هنا حتى الصفحة الاخيرة . ولا اجد مبررا لهذا الانعطاف في البناء . فنحن نؤخذ ، فجأة ، بهذا الانقلاب دون مقدمات . فلم يكن حسين يحتل المكانة الاولى عبر معظم الاجزاء . وكان بمقدور الكاتب ان يصور ويطور الى جانب حسين شخصية ثانية كانت سببا في انقلاب حسين هذا ، اعني تماضر التي فرت مع بستاني . نحن نعرف فرارها مع البستاني عمران دون ان يشير الكاتب صراحة الى هذا . وهنا يكمن سر اخر من اسرار العمل الرائع . لقد تركنا المؤلف مهيئين نفسيا للاقتناع بمثل هذه النتيجة التي نتخيلها . قد لا يصدق احد قصة الفرار هذه والتي تعلنها نشمية في وجه حسين المذعور كما لم يصدق حسين نفسه الذي ظل ثلاثة ايام يحوم حول الدار منتظرا ان يلوح طيف الحبيبة أو يتلمس دربا اليها . ولكن حسين لم يكن مهيأ نفسيا كالقارىء فيصدق .

***

لم تكن النخلة العجفاء العاقر الا تجسيدا اخر لسليمة الخبازة نفسها . ونحن نتعرف على هذه النخلة الآدمية اليابسة ونتلمس تقاطيعها النفسية واخاديد روحها عبر فصول كثيرة ، وليس دفعة واحدة . فهي لم ترسم جاهزة اوتامة . ولعل تولستوي أول من اهتدى الى طريقة هذا التصوير التدريجي ، التصوير على مراحل . اننا نتعرف ، مثلا ، في كل فصل على سر جديد من اسرار ناتاشا النفسية او صفاتها الجسدية في الحرب والسلام .

في الفصل الاول لا نعرف الا سليمة التي تخبز وتحاسب ابن زوجها حسين على سرقته التي اكتشفتها . وهي عاجزة حتى عن التعبير عما يجيش في صدرها من غيظ . ومع الليل تبدأ مأساتها التي تعايشها كل يوم . فهي وحيدة كالنخلة العجفاء . وهذه الوحدة الطويلة وما تتركه في فم الانسان مع الصبح من طعم ترابي مرير ، هي التي جعلت منها صيدا سهلا لاول طارق غشاش . فليس من المعقول ان تخدع خبازة، وكلهن يعرفن قيمة الفلس الواحد الذي يكسبنه بعرق الوجه واحتراق الاصابع . اما سليمة فقد اعطت كالقربان كل ما قد جمعته على مر السنين من مال الى رجل طرق عليها الباب ذات يوم مقترحا عليها ان تصبح شريكا في فرن يبيع الخبز الى معسكر الجنود الانكليز .. فتتخلص بهذا من التنور ولهيبه وتعب الايام والليالي . وكان هذا الرجل افاقا كون له علاقات مريبة وسرية مع الخدم والسماسرة الذين يشتغلون في مستودعات الجيش المحتل ، فالرواية تصور بغداد في مؤخرة الحرب الثانية . ولن يترك هذا الافاق سليمة حتى يتزوجها بعدما يغادر الانكليز وينقطع مورد « رزقه » ، طامعا في دارها وعرق يديها . وسليمة التي اكتشفت سر هذا الرجل ونفاقه وافقت على الاقتران به وهي تدري ان له وجها اخر ، وجها بشعا غير هذا الوجه الذي يقابلها به يوميا مرتديا مسوح الرهبان ومرتلا آياته القرآنية . ولكنها وحدة الليالي الطويلة واشباحها وكوابيسها . ان سليمة بحاجة الى رجل .. الى صديق . انها كالآدميات الاخريات تريد لها رجلها . ولم يكن حسين بالابن الذي يرعاها . ولقد اجاد الكاتب في اعطائه لحظة عميقة وذكية في تصوير مدى توحد سليمة .. لحظة بكائها فجر العيد . ان هذا النشيج المخنوق وسط ظلمة فجر عيد اكثر من دليل على ضياع انسان . كانت سليمة تبكي ايامها (الرخيصة) وسعادتها المسروقة . وآي حزن اروع من هذا الحزن الانساني الذي ينفجر صباح عيد كما ينفجر السحاب الذي طال تراكمه . وساعة البكاء هذه هي الساعة التي يترقب حسين فيها فرصته لتنفيذ مشروعه في سرقة الخبازة . ولكنه يفاجأ بها تبكي فيعصر قلبه حزن وتعاسة مرة لم تكن بالحسبان ويهم بملاطفتها وتعزيتها .. فيلين قلبها وتعطيه عن طيب خاطر ما اراد لصه تحت جنح الظلام .

وسليمة تعيش وسط بغداد ولكنها لا تعرفها ، لا تعرف بغداد الحدائق والجسور والقصور . فهي ترجع من رحلتها مع مصطفى مذهولة مندهشة كأنها عائدة من عالم اخر .

وقد وقعت سليمة في شباك مصطفى كالصيد السهل . وهل تقدر امرأة متوحدة مثلها على مقاومة الاعيب هذا الرجل ، لقد كان ذا فلسفة خاصة في الحياة تقوم على اساس من تعبيره المفضل : الارض تقف على الفلوس وليس على قرن ثور . فكل شيء يتحدد بالمال . والذي لا يملك فلسا لا يساوي شيئا . كان يعمل في السوق السوداء مهربا الشاي والويسكي من مستودعات الجيش المحتل . وانهارت تجارته اثر مغادرة الانكليز فلم يجد امامه الا تنور سليمة .

***

وليست تماضر من جيران النخلة . انها من حي اخر انتشلها حسين ذات امسية امام باب سينما . كانت ضائعة تتسكع .. فارة من اهلها الذين يرغمونها على الزواج من عطار تتقزز نفسها لدى رؤيته . فقررت ان تترك كل شيء وتعطي نفسها للقدر . اخذها حسين واستاجر لها غرفة . ثم استقر بهما المقام عند نشمية ، امرأة غير طيبة وهي من معارف الطفولة . لم يكن حسين بالذكي فيعرف سر هذه الفتاة وقلقها . كانت بالنسبة له « لقيطة » عثر عليها امام سينما .. فهي اذن مجرد متاع لليل . لم يكن يريد منها الا جسدها يغرق فيه ساعات الليل الاولى ويغادرها الى النخلة القميئة والمقاهي ، تاركا فتاته تتقلب على فراش السهد ضائعة وحيدة تخاف شبح ابيها وخنجره .

لقد كانت تماضر عبر الرواية كلها كالزهرة اليانعة . ولم يكن القاؤها بنفسها في حضن اول رجل تصادفه بشيء معيب او يبدو معيبا في الظرف الذي هي فيه . كانت مغامرتها محفوفة بالمخاطر . ولكنها ابت ان تقدم نفسها راضية كالخروف في يد الجزار . فاختارت طريقا اخر . لقد قررت مصيرها بنفسها . كان حسين يخدعها بانه نجار ، وكانت هي كالساذجة تلح عليه بان يؤثث لها الغرفة ويمنحها الهدايا . ولم يكن حسين ذا حرفة ولم يكن ثريا . فبعد ان نضب معين نقوده لدى صاحب مؤجر الدراجات ، راح يفكر بسرقة الخبازة وبيع الدار . لم يكن يفكر بالغد واي حياة تنتظره مع تماضر . كانت بالنسبة له طعام ليله . وعندما احس من جانبها برودا وتمنعا لم يبخل بشيء .. لقد احبها آنئذ ، ولكن بعد فوات الاوان . لقد انفصلت تماضر قلبا عن فتاها الذي لم يكن الا زائرا ليليا يطرق عليها الباب لحظة المساء ويمضي بعد ساعة او ساعتين. وهي الحلوة والشابة التي ترى جيدا تاثير شبابها في عيون الرجال عندما تسترق سويعة من ايامها الوحيدة الى طريق النهر .

وتلتقي تماضر بتاثير ودفع من نشمية برجل اخر ، يكاد يكون في عمر ابيها . بستاني لون لها المستقبل بوهج البرتقال وعبير الليمون . ولم تفكر بفارق السن او شيب رأسه ، بل وجدته مثيرا .. صوته الخشن ورائحة التبغ التي تفوح ملء ثيابه . وتترك عشيقها الصغير الذي باع الدار من اجلها وتمضي مع البستاني . ولا ندري هل اخذها عمران زوجة ام عشيقة .. واكبر الظن انه لن يتزوجها . قد يتساءل القارىء عن هذه الخطوة التي قامت بها تماضر .. تاركة عشيقها ومرتمية في حضن رجل اخر .. أي شيء يبررها ؟ أهو حب جديد ام خوف من المستقبل غير المضمون مع حسين الذي لم تبد منه اشارة الى زواج ، ام وقوع في حبائل نشمية ؟ لعل كل هذه العوامل الثلاثة عملت معا على دفعها الى البستاني . وهل يلومها احد ؟ او يدمغها باللاخلاقية ؟ وهي الجريئة التي ثارت في وجه ابيها ضد زواج لااخلاقي شاء اهلها ان يبيعوها فيه . انا شخصيا اجد فرارها من حسين عملية غير معقدة .. واعتيادية ولكنها قد لا تخلو من رعب .

***

اكثر الشخصيات مأساوية هو حسين : هذا الفتى الضائع في مقاهي بغداد الشعبية وصالات السينما . ان مرهون السابس في طولة الخيل اكثر منه بؤسا ولكنه لم يكن ضائعا مثله .. كان مرهون ذا حرفة وهو ماض في بحثه عن عمل يدر عليه لقمة الخبز . اما حسين فرغم بحثه ووقوفه الساعات الطوال امام المفوضية البريطانية في انتظار مهنة ما .. حفنة دنانير يشتري بها راحة البال وحب تماضر ، رغم دأبه في البحث فقد كان خائبا .. لم يكن جادا بالتفكير في العمل والثبات على الارض . وليست مأساته في البقاء مكتوف اليدين دونما عمل والجلوس

ـ التتمة على الصفحة ٦١ ـ

النتاج الجديد

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٦ ـ

في مقاهي بغداد ، ولكنها في الضياع .. الضياع الذي كان سببا في بقائه على هذه الحال متشردا من مقهى الى مقهى .. الضياع في اعماقه الخاوية . لقد تطور حسين في اخر الرواية تطورا عجيبا . واصبح غير ذاك الفتى الذي لم يكن يحلم باكثر من ١٥٠ فلسا في اليوم وابتسامة من تماضر . اصبح قاتلا وشقيا من اشقياء بغداد الذين يجوبون الازقة والحانات والمواخير والسكين في الجيب والشتيمة القذرة على الفم . لم يصل حسين في نهاية الرواية الى هذه الشخصية البغدادية تماما ، ولكنه ظل يحلم بها طوال الفصول الاخيرة عندما غدرت به تماضر وقتل احد الاشقياء صديقه صاحبا . ظل يرنو الى اليوم الذي يحمل فيه سكينا وينتقم . وقد تحقق حلمه في اخر الصفحات ، قتل حسين محمودا ، الشقي الذي قضى على صاحب مؤجر الدراجات اللطيف . لم يكن مقتل صاحب دافعا الى هذا السلوك ، ولكنه الضياع . لقد كانت تماضر تشد حسين الى الحياة ، ولما انقطع الخيط بينهما وجد حسين نفسه معلقا في الفراغ ولم يبق ما يربطه بالاخرين وبالارض .

لقد ذابت تماضر في الظلام وسقط صاحب صريعا تحت طعنات خنجر ابن الحولة الذي اهان حسين في المقهى وسخر منه .. وقد حفرت حادثة المقهى هذه بئرا من الحقد في صدر حسين تفجرا دما في اخر الرواية . لم يكن حسين بالشجاع حتى في اللحظة التي غيب فيها سكينه في ظهر محمود . لقد كان محمود امامه بلا حول او قوة ، كان سكرانا بلا وعي ومعطيا ظهره اليه وهو يقيء في حوض المغسلة في الحانة .. كان خرقة بالية وليس برجل فلم يكن على حسين الا ان يطعن . لقد التذ حسين بالطعنات فلم يكتف بواحدة او اثنتين . وقد خرج من الحانة دون ان يراه احد . وذهب في الظلام .. الى اين ؟ اتراه يغدو محمودا اخر ؟ لا نستطيع الا ان نجيب بالايجاب . لان حسين الذي نعرفه خلال الرواية كلها متبطلا تائها يملك كل الاسباب لان يصبح شقيا . هناك خيط من النور يظل عالقا في الظلمة التي اكتنفت حسين .. هو حبه لصاحب ، وليس حبه لتماضر . لقد كان صاحب اكثر الشخصيات نقاء وطيبة وتفهما للواقع .. ولكن هل ينقذ هذا الحب حسينا من الهاوية التي ينحدر اليها بالتأكيد ؟ لقد مات صاحب .. وتحول حبه الى حقد تفجر في قلب حسين نارا ورمادا .

لم ينتقم لصاحب وحده . ولم يكن ابن الحولة ضحيته المنشودة . لقد دفع حسينا الى ان ينتقم هجران تماضر له والصفعات التي هشمت بها وجهه نشمية والرجل الطويل الذي كان يسندها .. والتشرد الطويل والوحدة القاتمة التي فتحت فكيها المخيفين امامه . لقد انتقم حسين في ابن الحولة من مجتمع بكامله ، مجتمع جعل منه تائها بلا سند ولا صديق ولا امل . لقد سرقوا منه اجمل واعز ما يملك . سرقوا تماضر الرقيقة اللعوب ، وسرقوا صاحبا الصديق وسرقوا منه داره .. سرقوا الزقاق البغدادي بروائحه القديمة ، سرقوا منه حياة كاملة فلم يبق امامه الا ان ينتقم . وقد كان .

***

اضافة الى الاشخاص الذين ذكرناهم ، تضم رواية « النخلة والجيران » اشخاصا اخرين وكلهم ابناء زقاق واحد ، زقاق النخلة القميئة وحانوت الدراجات والتنور والمياه القذرة ، باستثناء مصطفى المهرب ونشمية التي استأجر لديها حسين غرفة . لقد كان مصطفى اكثر من غشاش . كان لا يملك حتى هذا الحب الطبيعي الذي يحس به كل انسان تجاه وطنه . كان يتمنى ان تظل احذية الجنود الانكليز جاثمة على صدر بغداد الى الابد ، ما دام هو شخصيا قادرا على الانسلال من ثقب ما الى مستودع الويسكي والشاي ويهربه الى السوق السوداء . وكان يملك كل اخلاق اللؤماء من تظاهر بالتدين والورع والصلاح . ان شخصيته بغيضة .. ولكنها حية تماما اكثر حيوية فنية من سليمة او حسين . لقد استطاع الكاتب ان يرسم ادق خلجاته واعطاه تلك الرعشة العجيبة التي تجعل من الشخصية الروائية كائنا من لحم ودم . لم يكن مصطفى مفرما بسليمة ، ولكنه عندما استسلم لحرارة الويسكي وخيالاته اندفع نحوها بافكاره وظل ينتظرها انتظار العاشق المتيم . ولكن وراء هذا الشبق الذي اثارته الخمرة والظلام .. واقعا اخر ، ان افكار مصطفى الباطنية تبني منذ لقائه الاول معها خطة لافتراس الخبازة ما دامت مورد رزق لا ينقطع ، وقد كان له ما اراد .

وفي انطونة المجاورة لبيت الخبازة كان يقطن سايس الخيل مرهون. ويخيل لي ان مرهون اكثر الشخصيات نجاحا فنيا . لا يحتل هذا السايس المنفي في العتمة مع الخيول والروث والعناكب وتراب السقف المنهار ، الا جزءا صغيرا من القصة . ان وجهه الموشوم ببؤس ازلي لا يرجف امام عين القارىء الا مرة او مرتين ولكنه يترك انطباعا لا يمحى . وليس فقر مرهون المدقع او عزلته المنكبوتية ما يظل باقيا في ذهن القارىء ولكنه تمرده العجيب على القدر .. لم يكن يحمل هذا التمرد وجها اجتماعيا . ولكنه توهج وجودي يكتنف وجه الانسان كهالة من نور . لم يكن مرهون قانعا بما يراه ، ولم يجد ما يبرر بقاءه في الطين والتراب . ان حواره مع نفسه ، مع مرهون اخر وما يتألق فيه من ذكاء لمن اجمل الفن وارقاه .

تمتاز رواية النخلة والجيران بشاعرية رقيقة تلتمع في اكثر الصفحات . حتى خيل لي مرة ان الاستاذ غائب جرب الشعر ذات يوم واجاده . وقد يتسلل احيانا الى اوتار خبيئة في النفس الانسانية لا تستطيع ان تتلمسها الا اصابع شاعره . اننا نجد الخبازة في الفصل الاول قد « نهضت لتوقد الفانوس النفطي ، ووضعته على جاون مقلوب، وجعلت تكسر الحطب قرب التنور . حطب البراري . رائحة طين نقي . سامراء وكربلاء والنجف . شممت غبارا جافا ذكرها بغبار سيارة مندفعة في طريق مترب الى البعيد . » ان في هذه الكلمات الغنية ذاك الباب السحري الذي يلج منه القارىء الى عوالم سرية وفاتنة . وفي نفس الصفحة « .. اغمضت عينيها ثانية ، استرخت مستسلمة للنعاس طاف في رأسها مثل مويجات ، وتذكرت الزورق الذي عبرت فيه الى سامراء ذات مرة . هدهدها في رفق على ماء رقراق رأت خلاله الحصى الملون الذي بدا لها قريبا لا يكلفها الا ان تغمس ذراعها في الماء وتلتقطه . » قد لا تستطيع سليمة ان تغوص في اعماق ذاكرتها وتلتقط من هناك حفنات ذلك الحصى الملون ، ولكنها كانسانة بسيطة لا بد وان تحلم ، مرة ، في الظلام بالماضي .. بالايام التي خلت . وكم من ماض تعس يخيل لنا ، احيانا ، ساعة اليأس ، انه جنة مفقودة .

هذه بعض الملاحظات التي لاحت لي وانا اقرأ الرواية . وهي ليست بالدراسة الشاملة ولكنها كما قلت بعض الملاحظات . وقد رأيت ان اصمت حيال مشكلة هامة يثيرها حوار الرواية المكتوب بالعامية العراقية . وليس وراء صمتي الا سبب بسيط هو اني حتى الان لم ازل حائرا امام هذه القضية ، قضية الحوار . كل ما استطيع قوله هو اني اتقبل بنفس الرضا عامية الحوار او فصحاه .

موسكو — حسب الشيخ جعفر

كتابات لم تنشر

للمرحوم محمد مندور

(منشورات دار الهلال ـ القاهرة)

***

الاجيال الادبية التي ظهرت منذ بداية الخمسينات والستينات من هذا القرن ارى ان لا مندوحة لها عن تدارس معطيات مندور ابان المرحلة السابقة والتفقه بها ، فتلكم المعطيات السالفة ليست البدوة الاولية في حياة الكاتب الكبير وهي لا ينبغي ان تدرس على هذا الاعتبار وحده انما

يؤخذ بنظر الاعتبار احتفالها الى حد كبير بالجدية والعمق وتمثيل الواقع الادبي والاجتماعي الذي جاءته مصر والاستجابة الواقعة المخلصة لحال دواعيه وضروراته واعتماد موقف صحيح منها . فالمبادرة الى محاولة جمع مقالات الكاتب الراحل ودراساته وابحاثه المعرفة المبثوثة في صحف ومجلات شتى والشروع بتصنيفها والتأليف بين المتسابهات منها في كتب هو اجل ما يمكن تقديمه الى ذكرى المعلم الكبير تعبيرا عن الشعور بالاعتزاز والاكبار واحترام مجهوداته الطائلة في ترسيخ جملة قيم رفيعة ومفهومات ناصعة والاستواء بنقدنا الادبي على حد بالغ من التماس الصدق والموضوعية والاخلاص والنضج . واحسب أن الدكتور شكري فيصل كان اول من صدع بالدعوة غداة موت مندور لجمع مقالاته القديمة المتنوعة ومن بينها ابحاثه اليومية الباحثة في قضايا الاجتماع والسياسة المحتفظة بجدتها واصالتها رغم انصرام ردح من الزمن غير قصير عليها تبدلت خلاله كثير من الملابسات والظروف التي اقتضتها وابتعثت عليها . غير ان ذلك لم يحل دون اغتناء تلكم الدراسات واكتنازها بذلك العنصر الغريب الذي يبقي عليها قيمتها فلا يحد منها او يهون من جلال اثرها في النفوس . وقد يعول عليها في مواجهة ظروف وازمات مماثله او مغايرة ، فكفاح الانسان على اي حال لا يعهد في ختام التحصيل حدا او خاتمة ينتهي عندها انما لا يكاد يتوقف عن مسيرته حتى يستأنفها مجددا .

و « كتابات لم تنشر » هو المحاولة الاولى في جمع تراث مندور المغرق وحفظه من الضياع والتبديد . وهذا الكتاب الذي اصدرته دار الهلال ضمن سلسلة كتابها الشهري قد لا يقدر دائته الا النابتة الجديدة التي لم تعن من قبل بحكم طبيعة السن بمصاقبة الكفاح الرائد الذي خاضه مندور في شتى المجالات والميادين مبتغيا من ورائه تحقيق الاصلاح وارساء مفومات حياة مجتمعه على اساس متين من احترام كرامة الافراد والجماعات وتمتعهم بالحقوق الانسانية المشروعة ، فقد كافح على صعيد الجامعة وسعى جاهدا لمحاولة تبديل مناهج التدريس ونشر الروح العلمية التي تعنى بالبحث واستخلاص الصحيحه والاطلاع بالجديد والاضافة الى تراث الانسانية العام ، وكافح على الصعيد الثقافي حيث حارب الجمود والتعصب والتزمت وحض على ضرورة اخضاع دراسة الادب العربي القديم للمناهج الجديدة السائدة في جامعات الغرب ، بديل الاقتصار به عند ضيق النطر ومحدودية النظرة بحيث انتهى الامر به الى حد اعتباره ادبا لفظيا لا يحتفل بالقيم الانسانية ويفتقر الى الدلالات الفكرية النامية الحية ، — يضاف الى ذلك نفاذه بعين مجتلية وبصر حاد الى ما يتفشى في اوساط المثقفين او كما يحلو لهم اطلاق هذه الصفة عليهم ، من الجدب في الاحساس والشعور والضحالة في الفهم والتحصيل ، والسطحية في الادراك ونمثل الاحداث التي تلم بهم وبمجتمعهم من آن لآن ، بحيث لا يحسنون اعتماد المواقف الصحيحة المتوجبة حيالها ، وقد كان هذا الرائد القدوة مفعما بشعور التفاؤل رغم كلوحة الدهر ونعبس الظروف من حوله ، فثمة ايمان يعمر نفسه ، بحتمية زوال ما يكدر وجه الحياة من النذر والسحائب ، فلم يكن لليأس محل في وجدانه او منفذ الى نفسه بحكم عمق الايمان الذي يساوره بوجاهة الحقوق التي يناضح عنها ويسعى في سبيل انتصارها .

« لست ممن يركنون الى اليأس أو يدعون الى التشبيط وبودي لو نفثت في كل قلب ايمانا بالنفس واملا بالحياة حتى ارى جميع مواطنينا كالكرات من المطاط كلما زدتها صدما ازدادت قفزا » و « لا محل لليأس فنحن سائرون الى الامام وما علينا الا ان نواصل السير في ثقة وشجاعة ».

بهذا الروح القوي والفطنة النافذة والذكاء الحاد والفناء المكين والتصميم الجاد ، بهذه العدات كلها كان يتسلح هذا العظيم ويجابه اخصامه ، لا الشخصيين ، فلم يكن لمندور خصم شخصي ، انما اولاء الذين لم يكن يروق لهم تطوير المجتمع المصري والانتقال به من الجمود الى التطور ومن العبودية الى الحرية ومن التخلف الى النهوض وفتح المنافذ المغلقة لانسلال تيارات الفكر الجديد والحياة الجديدة .

فمن ضمن مقالات — كتابات لم تنشر — المتفاوتة في موضوعاتها المتعددة وقضاياها التي تختصها بالمعالجة والتناول الشمولي ، فهي تنحصر وتمتد عبر اسفاره والمجتمع وآفات التنفوس والسياسة والاقتصاد — من ضمنها مقالة تحمل عنوان (بعث القديم) — مستجمعة لكافة شروط وخصائص ومياسم المقالة الادبية والفنية والبحث المترابط الدقيق ، وقد لا يدعها القارىء دون ان يغتني بالجديد ويزود بالمحصلة التي ربما نعنيه في امكان تصحيح كثير من المسلمات التي ترسخت في وجداننا واحتلت مكانها من ذهنه بفضل قراءات سابقة أو تصديقه جملة احكام واراء دلل على صحتها وموضوعيتها ذات يوم واحد من الادباء الكبار ، فشيخ النقاد في لبنان المرحوم مارون عبود كتب مرة عن المنفلوطي بمناسبة قيامه بتجديد رسالة الغفران للمعري ما نصه : (ان تعابير المنفلوطي في كل ما كتب هي هي بعينها شاحبة خضراء كقوس الشنفرى أو كتبي يربوع الاخطل ، اما سياق تفكيره فواحد كل ليلة غداة الاهاب وكل حفل من البصر وكل وقت يمضي الا افله ، وكل رؤيا يبدأها : رأيت فيما يرى النائم . وقد كتب صفحات فلا ندري ماذا يريد فتأتي معانيه كحبة قمح في عدل تبن ولا اتخيله الا كاولئك الواعظين الذين يعيدون مواعظهم على الناس بنحمها ولحمها وعجرها وبعرها) وكذا راح مندفعا في سخريه اللاذعه وهكمه المر وازرائه المستحف باسم جمل صبابنا على ازالة ما اسماه فيما بعد عقيدة الاسلوب والقالب واستعثاثهم على اعتماد التعبير (ككائن حي ينفخ فيه الاديب من روحه) ، اعني باسم نشدان الصدق في التعبير والتماس الصياغة التلقائية المحببة والاداء المطبوع النام عن عفوية التناول وطواعية تخير وانتقاء ما يحسن التعويل عليه من الالفاظ والمفردات للعبارة عن المعنى وتجسيد المضمون ، وخلص الى ان المنفلوطي كاتب اضر بطبيعه الاساليب المحدثه فهو في اعتباره محيي الموؤودات واخلق ان يسلك بالقدامى من معتمدي القوالب الجاهزة من ان يعد في رعيل المجددين ، وحتى روحه الرومانسي وتحليقه في رحاب الخيال وتشربه العاطفة البشرية الزاخرة بالمواجد والاشواق ونلمس الرؤى والافاق والاجواء التي تقدس الطموح الانساني المشروع وتحمل على الانفلات من اليأس والاستكانة والاذعان والصبر على الهوان ، كل هذه غفل عنها شيخ النقاد وضرب دونها صفحا ولم يحمل نفسه على تسجيلها للمنفلوطي ، لذا فقد لا يخلو رصده النقدي من الخطف والتعجل المشفوعين بالمغالاة والتحمس لموضوعه ، يعينه في التوسل لترسيخ مسلماته في الاذهان والمكين لتثبيتها في العقول كحقائق ثابتة واراء وجيهة ، فدربه على التعبير القوي والاداء المشرق المزوج بمحفوظه الكثير من امثال العرب وافوال حكمائهم والفلذات العبارية التي يختطفها وينهبها ويغير عليها من ابيات الشعر السائرة وقد يحسن التوفل عليها ويحلها في مواضع من تعبيره بحيث تبين وكأنها من ابتداعه وصلب باديته .

فاما شيخ النقاد في مصر المرحوم محمد مندور فانه يقرر بشكل صريح وقاطع دالة المنفلوطي على النثر العربي الحديث اذ يثمن خطوه في الانتقال به نحو التعبير المباشر المنسم بتمثيل التفكر والاحساس الصادقين ويتجاوز هذا التقدير الى اعتباره رائدا فذا لتيار جديد في الكتابة الادبية ، بعد ان طال رسوف النثر العربي في مصر خاصة ومنذ عهد المماليك باغلال الصنعة والتدبيج والشعوذة وابتغاء العبارة البلاغية التي يوفى عليها بعد الكد المضني وفرط الجهد والمغالبة الشاقة ، فالمنفلوطي ، في حسبان مارون عبود مفصل الشباب من نابتتنا الجديدة اذ هو محيي الموؤودات بيننا نلفيه في ملة مندور واعتقاده قدوة الشباب مذ عهده الاول ، فاسلوبه محتفظ بالسلاسة العربية الصافية والاشراق المحبب ، والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا التباين البعيد في الرأي والتقدير تنحصر في أن شيخ النقاد في لبنان عني بتدارس صاحب العبرات وفق منهج لا تتسمح مداليله بالربط بين ماض وحاضر اذ لم يأخذ بنظر الاعتبار الفترة السابقة عليه ويمعن في تدبر حالة النثر العربي فيما سبق من عهود ، بينما يؤثر مندور المرونة والتريث والتفرس الدقيق ويغدو من بعد النظر ورحابة الجانب واتساع الافق بحيث يسجل للمنفلوطي فضل الريادة المجددة التي لا محيص لها من ان

تنجر الى العثرات والكبوات والشطحات ، فكل من اعتمد التعبير المباشر المجسد رغم مباشرته لحس صادق وشعور دافق وتعبير خصب جاد وقصد موضح مدين لريادة المنفلوطي هذه .

ومثل هذا النفار والتنافض في وجهات النظر ملمحه لدى الناقدين الراحلين الكبيرين ينطلق بالزيات ايضا . ومازون يعتد افتتاحياته في الرسالة من قبيل الخروب التي يلزم اطعام التسبيبة بها لتشبع حتى البشم اذا تطلبنهم بالتلهي بالعصفور ، بينا عتبره صاحب الميزان الجديد رأس مدرسة في النثر العربي حتى وان استهواها جمال الصياغة وغنى ذوقها بمراعاتها قبل اصالة الموضوع ، وشافعها يحمن بعد في ابتعادها عن اللفظية الجامدة المقتعلة التي طفت على النثر العربي في العصور الاسلامية المتاخرة . اشهد اني ظللت ردحا من الزمن رهن الاعتقاد والتسليم باحكام الشيخ مازون والتأمين على صحتها وسدادها وموضوعيتها ، فصدف بي عن قراءة الزيات واجتلاء معطياته وحتى كتابه عن تاريخ الادب العربي زهدت اكثر من مرة في التعويل عليه بقصد المدارسة والتحصيل والاستقاء والتعرف على ما يهم من اخبار الحوادث وسير الرجال .

وفي مقالة ثانية عن دراسة اللغة العربية وادابها ، دعوة صريحة الى التوسع في مفهوم الادب العربي والاخذ بالتجديد في مجال تدريس واستخلاص الحقائق الهادفه منه ، فماثور العرب من القصة والمسرحية والملحمة معدوم الى حد بعيد ، فقد حالت بينهم وبين الانقطاع لترجمة تراث اليونان من الشعر الملحمي والمسرحي في عصر المامون حوائل شتى ودوافع متباينة ، بينا عكفوا على ترجمة الفلسفة اليونانية ومأثورها من علم الكلام ، لذا ضاق مفهوم الادب عندنا حتى وقت متأخر بحيث اقتصر على المقامات والموقيعات والشعر الغنائي ، بينا لم يعد ماثور الغزالي وابن رشد وابن خلدون وابن مسكويه وابن سينا والرازي ممن ترسلوا في العبارة وتأبوا بذواتهم على الصناعة والسجع المبتذل والزخرف المهروء في عداد المأثور الادبي . وقد ارتأى المرحوم مندور ضرورة التوسع ، حتى يشمل مفهوم الادب هذا المأثور العريق الاصيل ويندرج ضمن معطيات الخلق اسوة بما هو شائع في الغرب من الانفتاح والاستهداء بالنظر الشامل وبجاوز اللفظية المنعنتة المتزمتة ، وقد يذكرنا هذا بما اطلع به توفيق الحكيم – في زهرة العمر ! – من النعي على اهمالنا لماثورات ومعطيات المؤرخين والفلاسفة كابن خلدون والطبري وابن رشد والغزالي واستهوان اعتبارها من مواد دراسة الادب العربي ، على حين انها ، قد تكون ادل على تراث اللغة واهليتها لاحتضان ادق الموضوعات والتكفل بالتعبير عنها من مقامات الهمداني والحريري واضرابهما .

وحتى في مجال الاخلاق والاجتماع لا يمسك مندور عن رصد ما يغلب على طابع الافراد الشخصي عادة من النزق الطائش والفرور المزهو والتفنج القبيح ويتفشى بين طوائف وفئات المجتمع من غيرة لاهية وغيظ مقيت وحسد فظيع ، ويتأسى كذلك لما يعرو نفوس الافراد من التحلل والتبذل الرخيص والاستهانة بالقيم الاخلاقية ويغريهم بالتفلت من تبعات الضمير الحي وما يشترطه على الافراد من الادلال بالرصانة والانتصاف للحق والاستمساك بالمواقف الثابتة المحددة ، حيال مختلف القضايا المستجدة . وفي كل هذه الرصدات والنقدات والمغامز التي يتناولها ، قلم مندور ، بالتناول المحكم والمعالجة الدقيقة والتفحص الممعن ، لا يفوت القارىء ان يجتلي ما يعمر صدر مندور وقلبه ويكمن في فؤاده ووجدانه من فرط الاشفاق والتأسي وبالغ الاخلاص والرغبة الحانية في تطهير المجتمع من الادران والمفاسد التي تعرس في ظلاله وتطبع حياته بسمة او ملمح يحملان على كل شيء الا التسليم بالرضى والاقتناع بانتفاء ما يكدر وجهها ويشين بها ويمسخ من جوهرها ونصاعتها ، كما لا تستدق ملاحظة ان كاتبها – كتب تلك الفصول القصار الغنية بالفهم الذكي والاجتلاء النافذ والمقدرة من سبر الاغوار واكتناه حقائق النفوس ، رجل عركته الحياة وتمرس بحمل اوقارها وتبعاتها ، وذاق منها الحلو والمر ، معا ، وتظل في كتاب المرحوم مندور بعد هاته المجموعه القيمة من مقالات الثقافة والمجتمع وافات النفوس ، مجموعة مقالات اخرى باحثة في السياسة ، معنية بالاقتصاد ، ايام كان استاذنا يناهض التعسف والجور والظلم ويصاول المفسدين والجائرين ، ويسلط عليهم الاضواء الكاشفة التي تميط الحجب الصفاق عن تماديهم في انتهاب حق الشعب واغتصاب حريته واهتضام كرامته ، وعلى هذا عد الدكتور محمد مندور من رواد ثورة ٢٣ يوليو العارمة المجيدة ومن اخلص دعاتها ، واسهامه الجاد في مجال التمهيد لانبثاقها وتهيئة الافهام والاذهان لترقب بزوغ فجرها ونصرها وانطلاقتها ، امر لا يحسن جحده وانكار دالته وتجاهل قيمته ، ان لم نجاوز ذلك الى عد معطيات مندور بهذا الخصوص من مصادر ومراجع دراسة التاريخ المصري الحديث خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، وبعدها ، حيث اعتزم على تقديم استقالته من الجامعة وآثر الانخراط في الحياة العامة ، وجعل من نفسه قائدا فكريا ، يهدي المضلين الى الطريق اللاحب .

ان مندور الذي سطر ضمن مقالته الاجتماعية والثقافية – قادة الفكر – ما نصه (ليس اشق على نفس الكاتب من ان يحس بأن جهده سيتبدد انفاسا انفاسا ، وان كل ما يخط ان يخلف اثرا لانه وليد مناسبات يومية لن تلبث ان تتغير فتفقد كتابه قيمتها) ، لن تعاف الاجيال الادبية العاقبة مأثوره الفني ، من وليد المناسبات والملابسات ، دون تمحيصة ودارسه ، فان لم تعتبره من وثائق التاريخ ومراجعه واسانيده في اقل تقدير ، وقد تعول عليه في كل مرة لرصد كفاح الجيل الفائت ، الذي مهد بسعيه وجهاده لسعادة التالين ، فلا شك انها ملفية في رصيده الفني ، من حرارة الشعور وقوة الاخلاص وعمق الفكر ، ما يمكن ان تفيد منه في التدرب على العطاء .

بغداد — اديب شاكر

صدر حديثا :

اخر رواية كتبها الاديب الكبير

كولن ويلسون

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

الشك

رواية عاطفية ، وفلسفية ، وبوليسية ... في وقت واحد ! وهي كذلك فضح لاساليب اليهود الاجرامية وتحليل لتأثير المخدرات !!

من هنا كان غنى رواية « الشك » ، وما تثيره لدى القارىء من شوق وفضول ... وليس ذلك غريبا على واحد من اكبر مفكري هذا العصر ...

منشورات دار الاداب — ٥٠٠ ق.ل